

أدب الميوعة والدلال

للسيد ماجد الآتاسي

منذ أسابيع خلت نرى أستاذنا « الزيات » في مقاله البليغ « أدب السندوتش » ، على أدباء هذا الجيل النابتين « جهلهم للغتهم ، وتقصيرهم في تحصيل آدابها » .

ثم علق الأستاذ « المازني » على هذا المقال ، وحدثنا عن شغفه بالكتب في أيام تحصيله الأولى ، وعن جلده على القراءة والدرس ، وقص علينا قصته مع كتبه يوم زواجه ، وكيف آثر الخلوة إلى هذه « الضرة » صباح يوم الخلوة على الجلوس والتحدث إلى زوجه العروس التي لاقت من « ضررتها » كل مايسوء ، ويضجر والتي نسأل الله لها الرحمة والرضوان ، وإلهامها أن تقابل ما تجد من اغتياب أستاذنا لها في شتى المناسبات ، بالصفح والغفران ، وهي آمنة مطمئنة في فسيح الجنان .

ثم تناول الأستاذ « أحمد أمين » هذا الموضوع بالبحث والدرس ، والتحليل والتعليل ، ووعدنا أن يعود إليه — كرة أخرى — ليصف لنا طرق العلاج ، وفنون الدواء من « مبدلته » ولعله يفعل .

وأخيراً عالج الأستاذ « العقاد » أدب « السندوتش » من الوجهة المالية — وأتى على عوامل شيوعه وتفشيهِ في آداب الأمم الأخرى الماصرة .

وهكذا تداول أسادتنا الأئمة هذا الموضوع من أكثر من ناحية — بالبحث والدرس ، والتحليل والتعليل

وما كان لي — وأنا أجد على عتبات الأدب حبو الأطفال وأحمل في ميدانه أجسام الأقرام — أن يدفني مايلابس — عادةً — نفوس الشباب ، من التورر والصلف والهور والزق ، إلى أن أزج بنفسى بين أرجل هؤلاء المعلقة الأئمة الأخيار .

ولكنني أحبت — ولست أدري لم — أن أصرف أستاذي « المازني » ساعة عن هذه « الضرة » الباقية التي يهيم بها ، والتي لا يطيق لها هجراً ولا بدءاً ، وأن أثقل فأهذر — أمامه — حيناً ، فمهدي به أنه محظوظ من جماعة الثقلاء ، فلکم طرخوا

بابه موهناً وهو ينط في نومه ، وسحبوه من فراشه لسؤال أو مزاح . ثم إني — بعد هذا — أطمئن وأقول له إنني لست من هؤلاء الشباب « الناعمين » أبناء الجيل الجديد ، الذين جاءوه زائرين ، فأذاقهم « علقته » وردمهم إلى الباب مدحورين ، ثم فضحهم وشهر بهم « في الرسالة » أمام الناطقين بالضاد أجمعين .

لئن نرى الأستاذ « الزيات » والأستاذة « المازني » والمقاد وأمين « من بعده ، على أدباء هذا الجيل الناجين ، جهلهم بلغتهم ، وتقصيرهم في تحصيل آدابها ، فما أحقني إذن ، أن أشغب على زملائي الناشئين — وعلى الكهول في سوريا أيضاً — فأنتي عليهم جميعاً : ضمت النفس ، وضمور الشخصية ، وقلة الاستعداد لحل رسالة الفكر الحر ، والعقيدة الثائرة ؛ وأن أسمي هذا النوع من حملة الأقلام « أدباء الدلال » بعد أن أسمي أستاذي « الزيات » أدبهم « أدب السندوتش » هذا الذي تقوم ثقافته على « تنفثات من الكتب ، ولققات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث » والذي نجد نتاجه « مختصراً متسراً كجني الحامل أسقطته قبل التمام » .

إن شأن اللغة في الأدب الفحل ثانوي بالقياس إلى نفس الأدب وشخصيته ، وإن الجهل بها والتقصير في تحصيل آدابها ، من السهل واليسر — إلى حد بعيد — أن نعالجها ونبرأ منها ، إذا ما تعهدناها بالارادة القوية ، والمزمنة الحازمة ، والكدح الصابر ، والمماناة الجلدة .

ولكن اللغة بلا نفس تنفخ فيها الحياة ، ولا شخصية تطبع هذه الحياة بطابع خاص ، ودون فكرة تداع ، لا تكون إلا حطاماً تدوسه الأقدام ، وقرقرة تعافها الآذان

كثيرون وكثيرون من الأدباء أوفوا في معرفة لغتهم على الغاية ، وأشرفوا في تحصيل آدابها على الدروة ، ولكن طبيعتهم التي لا يستهم ، ويشتهم التي أخرجهم ، وعوامل أخرى ، كل هذا لم يهي لهم النفس التي تهدم لتبني ، والشخصية التي تستقل لهيمن ، فهوروا وتدهوروا وأنحدروا إلى الوادي بين جموع الناطقين والنشئين واللاعبين ، من حيث طفر إلى القمة أهل النفوس والشخصيات ، فتبوأ قم « أولب » واستقروا في جنات « عبقر » ذلك لأن قوام الخلود في عالم الأدب ، نصيب هذا

فإن لم تجد أمامها ما تحطم ، رجعت إلى قرارها تثير حرباً عواناً بين خيرها وشرها ، وحققها وباطلها ، وتقاهها وبخورها ، لأن الهدوء والركون صور من صور الموت ، والنفس القوية لا تعرف فترات الموت والبرودة والجود ، ما دامت تبصر النور ، وتنفس الهواء .

الحياة سفر الأديب الموهوب : وهي صراع دائم بين النقي والرشد ، والحق والباطل ، والجمال والقبح ، والهدى والضلال ، والحب والبغض ؛ فالأديب الحق هو الذي ينزل إلى ميدان هذه المعركة المحتدمة ، يقاتل ويناضل ويصارع في سبيل الرشد والحق والهدى والحب والجمال ، إلى أن يحطم أستاذ الشر والباطل ، ويهدم حصون الضلال والقبح ، أو يتحطم هو على أقدم الحق الذي ناضل في سبيله ، وتحت ظل الرأية ، التي نافح عنها ، وهكذا يلفظ النفس ، راضى النفس ، مطمئن الضمير ، هادئ الخاطر ، يسم لأحلام القبر كما نسمي إلى الفراش إذا مسنا اللب وأثقل جفوننا النعاس ، فنسحب اللخاف ، ونسبله علينا ، هادئين باسمين لنستسلم إلى الأحلام .

هذه هي الحياة ؛ وهذه هي رسالة الأديب : قطع الصخر ، وتجرع الصاب ، وتحطيم الأصنام ، والطفرة على حطامها إلى قمم المجد ، وسماء الخلود .

فهل أعد أدباؤنا الناشئون — والكهول أيضاً — نفوسهم ومهجمهم وأدمنتهم لهذه المعركة التي وقودها النفوس الطامعة ، والقلوب الراغبة ، والضائر الحرة ، والمقول النيرة ؟
اللهم لا ! اللهم لا !

من يمر في هذا فلا ينمى على أدبائنا الناجين — وعلى الكهول عتداً — رخاوة العصب . والدلال والدعة والأنوثة واللين ؟ من يمر في هذا ، فلا ينمى عليهم ضيق الأفق ، وقطع الخيال ، وقصر المدى ، وضعف الجنان ، وتهيب القديم لأنه قديم ، وحب الجديد لأنه جديد ، والحرص على السلامة والمسألة ، والراحة والركون ، والنفرة من المصاولة والمباركة وقلة الجلد على حياة الجهد والتعب والضوضاء ، والتهيب من التجربة والاقدام ،

الأنجب من فيض الحياة وزخرها ، وقسطه من معرفتها وخبرها . بهذه الحياة التي أعدت للرجال أهل العود الصلب واللسان المفض ، محرمة على من ضعفت نفوسهم ، وضمرت شخصيتهم ، لانت قناتهم ، وموصدة أبوابها دون أولئك الذين يهيمون بجاملها ، ويخافون جدوها ، ويحفلون من عثارها ، ويعملون جياحاً على عتباتها ، والذين لا تحملهم أقدامهم الرخوة للجرى فوق نوكها ، والوثب على مصخورها

هؤلاء « الناعمون للدلول » أهل الدلال والدعة ، هم لفيليات في هذه الحياة ، وهم — بالتالي — متطفلون على موائد لأدب ، وليس للمتطفلين في عالم الأدب بقاء .

بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول بأن أصحاب النفس شديدة ، والروح القوية ، والشخصية الجبارة ، تهباً لهم من حسن البيان ، وجودة المقال والارتفاع بفنون الكلام ، ماتقطعونه أقلام من تمكنوا من ناحية اللغة ، وتفقهوا في أساليبها ، بصروا بنتائجها ، من أهل البرودة والنموعة والدلال

ذلك لأن الفكرة في النفس القوية قوة ، قوة عاصفة جاحقة ترون ، « تسكهرب » لها الأعصاب المرهفة ، ويشور لملها وجدان ، فأتجد النفس ترفها وتنفيها إلا في أن تغذف بها في ملوب نير كومضة البرق ، قوي كالحلم تنطلق من فوهة البركان ، يرفع في آفاق البلاغة والبيان إلى ما تنقطع دونه علائق أحلام والأنهم

هذا هو الأستاذ البشري يقول : « إن السيد جمال الدين أفغاني كان غريباً عن العربية ، وإن قاسم أمين كان شبه قريب عنها ، وإن حسين رشدي باشا كان قل أن تطرد على مانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، ومع هذا كانوا يرتفعون بجارة أحياناً إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان »

ولا عجب من هذا ، ألا ترى إلى مقالنا ، كيف يبين ويرفع ، سماء الوجدان ساعة ثورتنا وغضبنا ، إلى ما لا قدرة لنا عليه ، ساعة الرضى والاطمئنان ؟

كذلك هي النفس القوية ، أبدأ في ثورة عاصفة ، وغضبة احمة ، وكذلك هي أبدأ في تحفز للوثبة ، وتأهب للطفرة والهجمة

وضعت التعلق بالحق والمثل الأعلى والجمال ؟

إن حياة الأدباء أصبحت مضرب المثل ، ووحدة القياس ، في خمول النفس ، وكسل العقل ، وضعف الاستعداد للحياة ؛ فإذا قيل لك : هذا أديب فاعلم أنه من هؤلاء الذين يخرجون إلى الشارع ، والفراش على أكتافهم « والمخدة » فوق ظهورهم .

أجل ! إننا لا نرى من ينقطع إلى الأدب من شبابنا إلا الذين خانتهم أقدامهم في الوثوب إلى مرأى المجد ، والطفرة إلى قمم الظفر والذين نزلوا إلى ميادين الحياة ، فلما بلوها وبلتهم ، وعمموها وعجمتهم ولوحت لهم بسياطها من بعيد ورواها وارتدوا على أعقابهم ناكسين حائلة ألوانهم ، مرتعدة فرائضهم ، ثم انتجوا جانباً قسياً من الطريق ، بعيداً عن مواطن أهل الرجولة والإقدام ، على غرار العاجزين المتسولين الذين يقبعون في زوايا الشوارع القذرة ، أمام أهل الأعمال .

هاهنا أولاد شبابنا الذين يخفقون في الشهادات « والبكالوريات » تسألهم : ما تصنعون ؟ فيقولون : ندرس الأدب . وهكذا أصبحت دراسة الأدب ستاعة المعجز ، ودليل الخور ، وبرهان الفقر في المواهب ، أو الضعف في النفس . وقد ينتهي هؤلاء إلى شيء ما في دراستهم هذه ، فتراهم يصيحون نائحين في مآتم الموتى ، أو مهرجين في حفلات الأحياء ، أو حارقين للبخور أمام أهل الجاه ولا عجب من هذا ، فهم لا يصلحون للحياة ، ومن لا يصلح للحياة لا يصلح لجل القلم ، والوقوف في صفوف الأدباء .

ثم هذه هي المقاهي ، ودور البطالة والهم واللبث ، أصبحت ملاجئهم يلجأون إليها كما يلجأ المعجزة إلى دورهم وملاجئهم ، ويفرون إليها من زحمة الحياة ، وهم يقرقرون ويعومون ويتفقنون أعرف أديباً كهلاً — أو على الأصح متأديباً — : أفتردى يا صاحبي ما هي رسالة أدبه ؟ رسالته — بالضبط — رسالة « عميان الجنائز » والناثحات اللاتي يستأجرن في المآتم للتدب واللطم والشق والمويل ، أو رسالة « البرابرة » الذين يستأجرون في مصر لتأديب المتأديب ، وتنظيم الحفلات .

يسمع أن صديقه فلاناً قد مرض ولزم الفراش ؛ وقد يكون مابه لفحة حر ، أو زكام طفيف ، فهو — منذ أيام المرض الأولى —

بعد لصديقه العزيز مرثيته العشاء ليكي فيه — إذا مات وأظنه يريد أن يموت ليرثيه — ليكي فيه النجم الذي أقل ، والبحر الذي نضب ، والرحمة التي رفعت ، والرجولة التي فقدت . ويسمع أن « فلاناً » وهو من أهل الجاه الطويل المريض — سيؤم المدينة بعد أيام ؛ فإذا قدم كانت صاحبنا الأديب الخالد أول المستقبلين والرحبين ، وكان أول الخاطبين بين يديه والمساكين ؛ وقد يكون هذا العين ممن لا يعرفهم صاحبنا إلا « بالسلام » وقد يكون من هذه الطبول النفوخة الجوفاء التي تقع عابها في طريقنا صباح مساء ؛ وقد يكون ممن كان يشهر بهم أديبنا آداء الليل وأطراف النهار ؛ وقد يكون من هؤلاء المجرمين الذين يروحون ويحيثون أماناً بأثواب القديسين والأقطاب ، فسجد لهم ونحلمهم على الأعناق ؛ قد يكون هذا العين من كل هؤلاء ، ولكن أديبنا لا يتحرج إذ يخلع عليه الألقاب ، وإذا فرقه بالتحيات ، ويجعله في البلاغة سحبان وإن كان أعيا من ياكل ، وفي الكرم حاتم وإن كان أبخل من أشعب ، وفي الشجاعة عنزة وإن كان أجبن من أبي دلالة

وليت هذا الرثاء وهذا المديح كانا من وحي الخاطر ، ومن بنات القريحة ؛ وإنما سرقات من الكتب رصفت رصف الحصى ، وتفتات من الدواوين ركب تركيب « اللعبة » أعرف أديباً آخر — أو على الأصح متأديباً — أفتردى يا صاحبي مراسلته ؟ رسالته هي مهمة « ساهرة » القطن في مصر أو « ساهرة » البصل والثوم عندنا في سوريا . إذا كان الصباح يدعو إلى الانتداب ، ويتغنى بآثره و « يسمر » له ؛ وإذا كان الضحى ، وكان الحكم الوطني ملائجراً بالتصفيق ، وحطم الآذان بقصائده ينشر فيها مجد بني عبد شمس ، وبذيع فيها صنيع أبناء عدنان ؛ وهو « يسمر » للحكم الوطني لأن يسد الحاكمين مناصب الدولة ، ورياسة ديوان وزارة المعارف ؛ وهو عند الأصيل معارض للحكومة الوطنية ، متحمس في معارضته ، مسرف فيها ، لأنهم طردوه ولم يقبلوه ، وهو أخيراً في المساء رجل مسلم يقف بعيداً « على الحياد » لا يدعو إلى شيء ولا يؤمن بشيء لأنهم لو حواله من بعيد بالوسط ، مهول إلى عقدراره ، مضطرب

أليس في كل هذا، ما يلهب الحقد والضغينة في صدر الأديب
ويحوّله إلى طاغية غشوم، يبطش بلا رحمة ولا هوادة، في أهل
المجد المزيف المحرم، والجاء الملوّث الكاذب؟

في كل مكان أمة تصنع لقمعها من دمها وقطع كبدها
ثم ترفعها بيدها المرتعشة المشلولة إلى فمها لتسدر رمقها، فإذا اليد
القوية تمتد إليها وتتخطفها، وهي على شفيتها، والسوط يهتر
في يسراها.

في كل مكان نواج رواقص على سكينه الجزار، وسياط
هاويات على ظهور المستضعفين من العباد، وعذارى يشردن
ويعدن عن أوطان الآباء والأخوة والامهات، وشذاذ الآفاق
يشترون الضمير البشري بالأصفر الزنان، وذئاب «جنيف»
تعصف بها غرائز الوحشية والجشع، فتنتشر في بقاع الأرض
الآمنة المطمئنة، تثير الفتنة، وتبعث الروح، وتسنزف السماء،
ومن ورائها الخبث الأوروبي يحارب في سبيل السلام، وينفض
في سبيل الحب، ويرهب في سبيل التأديب، ويسرق في سبيل
الاطعام، ويوقظ الفتنة في سبيل الأمان!

أليس في كل هذا ما يشعل البخوة في رءوسكم، ويحرك
المروءة في نفوسكم، ويشير النيرة في قلوبكم، ويدفعكم إلى إغتماد
أقلامكم في أفئدة هذه الذئاب، وصوغها أسرة لهذه العذارى
الشردات، وإرسالها سهاماً في صدور الظالمين الطغاة، ورقعها
أعلاماً خفاقة للحق والخير والجمال؟

أين أنتم يا أصحاب الشعاع الرقيقة، والقلوب الرقيقة؟ يقولون
«الأدب زيف القلب: طاهره ورجسه، ونشيد الشعور: نبيله
وخسيسه؛ ومقياس القوة فيه أن ينفذ القلب فيتفجر، وأن نشد
فنبدع». إذن، لم لانسمنونا دقائق من زئيركم، إلى جانب
الشهور الطوال من نحيبكم نحيب الأطفال، ونواحك نواح
العجائز؟

سقولون: «هذا ما يجري على اللسان. وما يفيض عن
القلب»؛ وسقول لكم: «إنكم مرضى في أعصابكم، يا أنصاف
الرجال، وأشباه النساء.»

النفس، مهتر القلب؛ وآثر السكوت والرضى بالواقع على الشغب
المرغض، والنعيب المضجر

أعرف متأدياً قيل له ذات يوم «لم لا تنتسب إلى هذا الحزب
وبمبادئه كيت وكيت؟» فقال: «إنني أؤمن بمبادئه، وأرضى عن
منهجيه، وأطمئن إلى برامجيه، ولكن خصومه أصدقائي وصحبي،
فلا قدرة لي على خصامهم!.. وعلى أن أكون حرباً على هذا
الحزب بين صفوفهم!..»

هذه خطوط هي إلى الفحات الخاطفات أقرب منها إلى
الصور الجامعات، أوردناها - على عجل - لتلس أيها القارئ
بواحي من هذه الحياة التي يضطرب فيها جماعة الأدباء، والتي هي
ضرب من ضروب الجمود بل الموت.

يزعم أدباؤنا أن سماءنا غائمة ليس لها روعة الإيماء والالهام،
وأن آفاقنا ضيقة ليس لها القدرة على تفتيق الأذهان والأحلام،
وأن حياتنا جامدة ليس فيها من فيض الحياة ما يحرك الشاعر
والأوتار.

لا لا لا! لم تنم السماء ولكن عيونكم حسرى ما ترتفع، ولم
نضق الآفاق ولكن أذهانكم لم تفتح، ولم تجمد حياتكم ولكن
أوتار قلوبكم ما تتحرك.

ها هنا زعماء يرقصون على قبور الأمة، ويرتفعون على
أشلاء الشهداء، ويتناصرون لاقتسام الفنائم تناصر الذئاب الجماعة
أمام الجيف، في أقصى الصحراء، والناس - على رغم هذا - يحملونهم
على الأعناق، ويمرحون أمامهم البخور، ويهتفون باسمهم أطراف
الليل وآناء النهار

في كل مكان مرجفون يرجفون، ومضللون يكذبون،
وغادرون يندرون، وماكرون يمحرون، وجاهلون يتعاملون،
وأغبياء يرتفعون، ومجرمون في ثياب الأقطاب والأولياء، وبين
الهاثف والتصفيق يروحون ويحيثون.

والحقيقة في كل هذا تشرد فلا مأوى ولا مصير، والفضيلة
تستغيث وتستجير فلا مجر ولا نصير.

لهم : « إن حياة الأديب لا تكون إلا في ميادين الطمن والضرب
والعراك ؛ ولا تنهنا إلا تحت ظلال الحق والحب والخير والجمال ! »
قولوا لهم : « إن القلم الذي تحملونه أعد لتعمدوه في قلوب
الباطشين الظالمين ، والمجرمين الحاكمين ، والأتقياء الزيفيين ، فإن لم
تفعلوا فاعمدوه في قلوبكم فما خلقت الحياة لتذل جبان رعديد ،
وفي القبور مراد للآغبين »

إذا فاعلم هذا ، أيها السبعة الأئمة ، في العالم العربي جميعه ،
تصبح معضلة الضعف في اللغة من الهنات الهيئات ؛ وتقر
عيونكم بأدباء على غراركم : هم أهل لحل القلم ومجده ، وهم أهل
لأن يقولوا عن أنفسهم ما قال (فولتير) عن نفسه « ما يمنعني عن
أن أكون ملكا ، وإن لم يكن مفرق تاج ؟ ! »
أجل ! آتئذ يصبحون ملوكاً على عروش الأدب والبيان ؛
ملوكا تتحطم تحت أقدامهم عروش ملوك البطش والجاء ، وتحمل
عروشهم الخالدة أعناق القرون والدهور والآباء .
« حصن سورية »
ماهر الأسناسي

يا طلاب الأدب الباكي النائح ، يا مجائر الفن
هؤلاء هم آباؤكم وأمهاتكم وأبناء عشيرتكم ، يزجون في
السجون ، ويرسفون في القيود ، وتتلظى رقابهم على شفرات
منجل الجلاد ؛ ترتعش جفونهم المثقلة لتلمح ومضات النور ،
وتلهث صدورهم من خناق الكهوف ، وبغلي في صدورهم
الشوق إلى مروج الحياة الحرة ، حيث ترقص عرائس الأحلام
والآمال في أحضان الربيع . . .

أليس من جمود الحس ، وبلادة الشعور ، وغلظ القلب ،
أن تشربوا كأسكم على قبور الآباء ، وأن ترقصوا في مأتم
الأمهات ، وألا تحرك أوتار قلوبكم هذه الأمانى المشتركة الطوال
العراض ، وألا يهيمن على نفوسكم هذا الموقف الذي تمتاز
فيه الأنوار بالظلمات ، والآلام بالآمال ، والضجر بالرغبات ؟ فما
نراكم إلا مائلين بنحيكم جو الرجال ، وقارعين آذانهم بنواح
« الدلع » والدلال ؟

المجد ، والشهرة ، والنبوغ ، والخلود : كل هذا من عرائس
القلب ، وحسان الخيال .

لم لا يوقظ الحب في قلوبكم ، وتلهب الشهوة في جسومكم
عرائس هذه المواطف العليا اللاتي يرقصن على أكف النجوم
عاريات ، وينمن على ظهور القرون غائيات ، وبضربن على أوتار
التاريخ منشدات ، ويقطفن أكاليل الغار من رياض الجنان ،
ليعصبن بها رؤوس المجانين من أهل العشق والغرام ؟

لم لا تترامون على أقدام هذه العرائس التي يشع منها نور
الرجولة ، وتنفج تحتها أزهار الحياة ، بدل أقدام غانياتكم التي
يفوح منها روائح الرجز والخزى والعار ، والتي مصيرها إلى
جفوة قدرة في جوف التراب ؟ أليس في اختطاف الرجال رغباتهم
من يد الأقدار ، وركوبهم مهاكب الهول في سبيل الآمال ،
وتبوءهم عروش النصر مضمخة بالدماء ، أليس في كل هذا
ما يبعث فيكم عواطف الرجولة والشدة والبأس ، بدل الأنوثة
والبرودة والقنوع والدلال ؟

أيها السبعة ، يا شباب الشيوخ ، ويا شيوخ الشباب
ابشوا الثورة والتمرد في نفوس الناشئين من الأدباء ؛ قولوا

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سيرة السيد عمر مكرم

لؤلؤها الأستاذ محمد فريد أبو مديبر

سيرة جليلة من سير الزعامة الشعبية وصفحة رائمة من
صحف الجهاد القومي خلال القرن الثامن عشر حتى فاتحة عهد
محمد علي عندما اجتمعت كلمة الشعب على اختيار ملكه المحبوب
جد الأسرة الملكية الكريمة

والكتاب مزين بالصورة التاريخية

ثمانه عشرة قروش غداً أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسي رقم ٩

ومن المكتاب الشهيرة